الفصل الثاني

تاريخ الحساسية:

لقد وُصِفَتْ بعض أمراض الحساسية وخاصة الربو منذ عهود قديمة، فقد وُصِفَتْ أعراض الربو من قِبَل أبو قراط (أبو الطب)، وأطباء الرومان وقدماء المصريين، ومن بعد من قبل الأطباء المسلمين مثل: ابن سيناء. وفي القرن التاسع عشر وصف الطبيب الإنجليزي هنري سولتر الربو، حيث كان مصاباً به، وصفاً دقيقاً، بالإضافة إلى وصف أعراض حساسية الأنف والعيون.

ولكن كلمة (حساسية) كعامل مسبب للربو لم تظهر حتى عام ١٩١٠م حينما قارن الطبيب «ملزر» أوجه الشبه بين حالة الأرنب الهندي Guineapig الذي مات بسبب صدمة حساسية تسببت في انقباض القصبات الهوائية، وبين انقباض القصبات في الشخص المصاب بالربو، واقترح (ملزر) كلمة الحساسية كعامل مسبب للربو. وبعدها أخذ الأطباء يبحثون عن تلك المسببات للحساسية باستعمال وسائل مختلفة أهمها إجراء فحص حساسية الجلد للأشياء المشتبه في كونها مسببة للربو.

وفي بداية القرن العشرين أخذ الاتجاه نحو معالجة الربو باستعمال مصل المادة المسببة للحساسية، وكان يعتقد أن الالتهابات

البكتيرية للجهاز التنفسي قادرة على إثارة أنواع مختلفة من الحساسية؛ ولذلك ظن بعض الأطباء أن استعمال مصل مستخلص من البكتيريا يساعد على الشفاء من الحساسية وخاصة الربو.

ومن أبرز الأطباء الذين أخذوا بهذا الرأي الدكتور/روبرت كوك وآرثر كوكا من مدينة نيويورك. وقد ألفا بهذا الخصوص كتاباً أسمياه (الحساسية في النظرية والتطبيق). ويعد الدكتور كوك والدكتور كوكا من الذين أسسوا القواعد العلمية للحساسية كاختصاص من أحدث فروع الاختصاص في الطب. وفي عام ١٩٦٢م قدم الدكتور (أندرو سينتيفاني)، تفسيراً علمياً للاضطراب الذي يحدث في حالة الربو الحادة، على مستوى الخلية. وفي هذا التفسير الذي قدم على شكل بحث ومحاضرات بيّن فيها أنه يوجد خلايا خاصة في جدران القصبات الهوائية، وأن هذه الخلايا مزودة «بمستقبلات Receptors» بعضها تُسبب انقباض والأخرى استرخاء القصبات. وفي الحالة التي يكون المريض معافى، تكون المستقبلات القابضة والباسطة في حالة توازن. واختلال هذا التوازن بسبب التعرض لمسببات الحساسية، كغبار الطلع مثلاً يؤدي إلى ظهور أعراض الربو الحادة. ولا تزال نظرية الدكتور (سينتيفاني) تؤخذ بعين الاعتبار في الطب الحديث لتفسير ما يحدث في حالة الربو، حسب شدة الأعراض.

أما بالنسبة لحساسية الأنف، أو ما يعرف «بحمى القش Hay Fever» فقد وصفها الدكتور «هنري بيتشر» في منتصف القرن التاسع عشر في رسالة قال فيها: «وفجأة يصبح منديلك هو أهم شيء في حياتك، فأقل نسمة هواء تثير موجة العطاس، وإذا فتح الباب أو كسر زجاج الشباك فأنت تعطس، وإذا شممت قليلاً من الغبار، أو نفحة من العطور أو رائحة الدخان، فلابد من العطاس، إنها ثورة من العطاس تأتي في مجموعات مكونة من عطستين أو خمسة أو عشرين مرة».

لا شك أن مرضى حساسية الأنف يدركون صحة هذا الوصف لأعراض حساسية الأنف، ولكن الوصف الدقيق لحساسية الأنف جاء على يد الدكتور الإنجليزي (جون بوستوك) عام ١٨١٩م في محاضرة قدمها إلى الجمعية الطبية الملكية في لندن. وكان عنوان محاضرته (حالة إصابة العيون والصدر الدورية) التي كان يصف فيها حقيقة حالته الشخصية حيث كان مصاباً بالحساسية، وفيها يقول: «حوالي بداية أو منتصف شهر حزيران (بداية الصيف) من كل عام تظهر الأعراض الآتية بدرجات مختلفة من الشدة: شعور بحرارة واحتقان في العيون، أولاً في حافة الجفون ولكن بعد فترة قصيرة تصيب كل العين، مع احمرار وحكة ودمع. وبعد زوال هذه الأعراض بساعات أو أيام يبدأ شعور بالامتلاء والاحتقان في الرأس

والأنف، وخاصة في منطقة الجبهة. ويصبح الأنف متهيجاً وتحدث موجات من العطاس وسيلان الأنف التي تأتي في فترات غير منتظمة. وفي الحالات المتقدمة والشديدة قد يشعر المريض بثقل في الصدر وصعوبة في التنفس، وقد يشعر المريض بتعب عام وفقدان الشهية، وقد يصبح الحلق متهيجاً مع حكة وتهيج في الحنجرة».

أما الإثبات العلمي، بطريقة البحث، لأسباب حساسية الأنف فقد أتت على يد الطبيب البريطاني (تشارلز بليكلي) عام ١٨٧٣م. وكان ذلك الطبيب الشهير مصاباً بحساسية الأنف. وهو أول من أكد أن غبار طلع النباتات، (حبوب اللقاح) وخاصة الأعشاب، هي من أهم العوامل المسببة لحساسية الأنف. وقد أجرى تجارب على نفسه وذلك بخدش الجلد ثم وضع غبار الطلع المشتبه به كمسبب للحساسية على مكان الخدش. وبعد دقائق قليلة ظهرت أعراض الحساسية على شكل حكة واحمرار وتورم في مكان التجربة. وبذلك يكون الدكتور بليكلي أول من أدخل فحص الحساسية بطريقة وخز الجلد وهي طريقة متّبعة حتى يومنا هذا. بالإضافة إلى ذلك الاكتشاف في مسببات الحاسية وطريقة تشخيصها، فقد أجرى بليكلي دراسات يومية على غبار الطلع في الهواء، وأثبت أن غبار طلع النباتات ينتقل مع الهواء إلى مسافات بعيدة، وأن شدة أعراض الحساسية تعتمد على عدد حبيبات غبار الطلع في الهواء.

ولكن أول من استعمل كلمة (حساسية) هو طبيب الأطفال النمساوي (كليمنس فون بيركيت) عام ١٩٠٦م. وكان بيركيت يجري فحص الدرن بطريقة حقن الجلد بشكل روتيني على الأطفال للتأكد من سلامتهم من الدرن (السل).

وقد لاحظ أن بعض الأطفال يكون فحص الجلد موجب بالرغم من خلوهم من المرض؛ فسمى هذه الحالة «حساسية ALLERGIE»، ومعناها تغير الاستجابة المعتادة للجسم، أو استجابة الجسم بشكل غير معتاد للأشياء المعتادة. ثم جاء الطبيب النمساوي (بيلاشيك) وبالتعاون مع بيركيت شاع استعمال كلمة (حساسية) وانتقلت إلى أمريكا حيث قام الدكتور (روبرت كوك) بإشاعة استعمال فحص الجلد بطريقة الوخز والحقن بالإبر للتوصل لتشخيص مسببات الحساسية، في منتصف القرن العشرين.

ولكن بقي السؤال: كيف تحدث الحساسية؟ كان الشك أن هناك عاملاً أو جسماً خاصاً في الدم هو المسؤول عن ظهور أعراض الحساسية عند التعرض للمسببات. وفي عام ١٩٢١م أثبت الطبيبان الألمانيان (بروزنتز وكوستنر) أن الحساسية فعلاً تنتج عن تفاعل بروتين (جسم مضاد) في الدم مع العامل الخارجي المسبب للحاسية، فقد كان الدكتور (بروزنتز) مصاباً بحساسية الأنف والدكتور «كوستنر» حسّاس للسمك؛ فقد أخذ كوستنر عينة من دمه

وحقن بلازما الدم في ذراع صاحبه بروزنتز، وبعد يومين حقن الجلد ببروتين السمك فظهرت الحساسية على جلد بروزنتز الذي لم يكن حساساً للسمك، وبذلك أثبت أن الجسم المسبب للحساسية هو مادة بروتينية في البلازما ويمكن نقلها من الإنسان الحساس إلى الشخص السليم. وقد عرفت هذه التجربة باسميهما واختصرت باسم فحص (P-K) وهي لا تزال تستعمل في بعض حالات الحساسية.

وفي عام ١٩٢٤م نشر الطبيبان (سبين وكوك) بحثاً بيّنا فيه أهمية الوراثة في الحساسية؛ ومما جاء في الدراسة أنه إذا كان الأبوان يعانيان من الحساسية فإن ٧٥٪ من أطفالهما سوف يصابون بالحساسية. وأن ٥٠٪ سوف يعانون من الحساسية إذا كان أحد الأبوين فقط يعاني من الحساسية. وفي الحالة الأولى فإن الحساسية تبدأ في سن مبكرة في الأطفال.

وفي عام ١٩٦٦م و١٩٦٧م أصبح علم الحساسية مبنياً على قواعد علمية ثابتة وذلك حينما اكتشف الباحث (ايشيزاكا) وزوجته الأجسام المناعية المسببة في حدوث الحساسية وسمياه (IGE) وفي العام التالي اكتشف الطبيبان السويديان (جوهانسون وبينيك) المادة نفسها بكميات كبيرة في دم أحد المرضى. وبالتجارب المخبرية والسريرية المتكررة والمضنية تأكد أن تلك الأجسام المضادة (IGE) أو

(أي.إجي.إي) هي العامل المهم في ظهور أعراض الحساسية وأنها توجد في دم وجلد جميع الذين يعانون من الحساسية، بالإضافة إلى وجودها في الأنف والقصبات الهوائية. وبذلك أصبح اختصاص الحساسية من أحدث الاختصاصات الطبية الحديثة المبنية على علم المناعة. وبعدها خطا اختصاص الحساسية خطوات واسعة في البحث والدراسة مما نتج عن ذلك تحسن في أسلوب العلاج.

obeikandl.com